فضل حضارة وادي الرافدين على الحضارات الاخرى

أ. د. أحسان محمد الحسن
قسم الاجتماع / كلية الاداب - جامعة بغداد

للعراق تاريخ سحيق في القدم اذ لا توجد حضارة في العالم سبق تاريخها تاريخ حضارة وادي الرافدين. علماً بان جميع المصادر التاريخية الرصينة وبخاصة الكتب السماوية المقدسة كالتوراة والانجيل والقرآن الكريم تشير الى ان الخليقة قد بدأت في بلاد ما بين النهرين قبل حوالي ربع مليون سنة، وبعد ذلك بمئات الآلاف من السنين ظهرت في بلاد ما بين النهرين اول حضارة عريقة في العالم هي الحضارة السومرية (٤٥٠٠- ٣٥٠٠ ق. م) ، ثم تلتها حضارات مهمة في عصر الامبراطوريات لعل اهمها الحضارة الاكدية والحضارة الاشورية والحضارة البابلية والتي يمكن ان نطلق عليها جميعاً كما اطلق عليها المفكر الالماني هيجل في كتابه الموسوم " محاضرات في تاريخ الفلسفة " الجزء الثالث بحضارة وادي الرافدين[١] . هذه الحضارة التي شهدت نزول الرسالات السماوية وظهور الانبياء الاطهار الذين بعثهم الله سبحانه وتعالى للايمان بالله الواحد الاحد وهداية البشر واصلاحهم وتحريرهم من الامراض والادران والتناقضات التي كادت ان تفتك بهم لولا الارادة الربانية التي انقذتهم من الشرك والالحاد والطاغوت والضلالة .

ان هذه الدراسة التي تهتدي بنظرية هيجل حول تفاعل الحضارات وتكاملها ترمي الى تحقيق ثلاثة اهداف رئيسية هي ما يلي :

اولاً. توضيح حقيقة كون حضارة وادي الرافدين اول حضارة انسانية نشأت في العالم وكان لها الفضل الكبير في تنمية وتطوير الحضارة الانسانية في المجالات المادية وغير المادية .

ثانياً. تحديد مظاهر ومعالم الهبات المادية وغير المادية التي قدمتها حضارة وادي الرافدين للحضارات الانسانية التي جاءت بعدها وبخاصة الحضارة اليونانية والرومانية .

ثالثاً. تشخيص حقيقة التفاعل الموجود بين الحضارات الانسانية المختلفة. ذلك ان الحضارة تظهر وتقدم هباتها للحضارات الاخرى ، بعدها تزول وتحل محلها حضارة اخرى لتكمل الرسالة التاريخية للحضارة السابقة كما يقول الفيلسوف الالماني فردريك هيجل[٢] .

اما محتويات الدراسة فتتكون من اربعة مباحث اساسية هي :

المبحث الاول : نظرية هيجل عن التكامل الحضاري وتطبيقها على التفاعل بين حضارة وادي الرافدين والحضارات الانسانية الاخرى التي جاءت بعدها .

المبحث الثاني : الهبات المادية لحضارة وادي الرافدين التي قدمتها للحضارات الاخرى .

المبحث الثالث. الهبات غير المادية لحضارة وادي الرافدين التي قدمتها للحضارات الاخرى .

المبحث الرابع : العبادات والاديان في حضارة وادي الرافدين .

والآن علينا دراسة هذه المباحث وتحليلها مفصلاً .

المبحث الاول : نظرية هيجل عن التكامل الحضاري وتطبيقها على التفاعل بين حضارة وادي الرافدين والحضارات الانسانية الاخرى التي جاءت بعدها .

نظرية هيجل حول التكامل بين الحضارات الانسانية موجودة في كتابه الموسوم " محاضرات في تاريخ الفلسفة " الجزء الثالث . ففي هذا الكتاب هناك نظرية متكاملة لهيجل تفسر اصل الحضارات وتاريخ نشوءها وتطورها وامتدادها واتصالها بعضها ببعض . والامة هي التي تبني الحضارة[٣]، فكل حضارة انسانية متصلة بامة لان الامة هي بانية الحضارة وواضعةاسسها القويمة والمشرفة على نموها وتطورها والمسؤولة عن اتجاهاتها المادية وغير المادية . فاول حضارة شهدتها البشرية هي حضارة وادي الرافدين او ارض السواد التي بناها السومريون والاكديون والاشوريون والبابليون قبل حوالي(٦٠٠٠) سنة ورافقتها حضارة وادي النيل التي كانت تسير جنباً الى جنب معها[٤] . وحضارة وادي الرافدين كانت في ارض العراق ، بينما حضارة وادي النيل كانت في ارض مصر . علماً ان حضارة وادي الرافدين كانت اقدم واعرق من حضارة وادي النيل كما يقول المؤرخون والاثاريون . وقد قدمت حضارة وادي الرافدين عدة هبات مادية وروحية للانسانية ومنها اكتشاف الزراعة وتدجين وتربية الحيوانات وبناء منظومات الري والبزل لاوراء الاراضي الزراعية وابتداع الكتابة وتأليف الكتب واختراع العربة والعديد من الاسلحة. اضافة الى ظهور فكرة الدين والتدين وبناء الزقورات والقصور ونحت التماثيل ... الخ[٥] .

وعندما اضمحلت حضارة وادي الرافدين حلت محلها الحضارة اليونانية او الاغريقية التي اخذت مكانها في بلاد اليونان والتي استغرقت ردحاً من الزمن وقدمت العديد من الهبات والفضائل للبشرية في ميادين العلم والمعرفة والفكر والفلسفة والتربية والمجتمع . غير ان الاضافات التي قدمها الاغريق كانت معظمها فكرية ومعرفية وعلمية اكثر مما هي عملية وتطبيقية .وعندما تلاشت الحضارة الاغريقية واختفت حلت محلها الحضارة الرومانية التي استمرت نحو اربعمائة سنة وكان مكانها في

ايطاليا بوجه الخصوص . وهبات هذه الحضارة كانت تمس الجوانب العملية للحياة اكثر مما تمس الجوانب النظرية والمعرفية[٦]. فقد اهتم الرومان بفنون الادارة والتنظيم والمال وبناء القصور والتماثيل بعد ان تميزوا بفن النحت والرسم . واهتموا بالشؤون الدفاعية والحربية اذ طوروا عجلات القتال والاسلحة التي تستعمل في الحرب ،وبنوا القلاع الحصينة ونظموا مشاريع الري وطوروا الزراعة وبعض الصناعات .

وبعد اضمحلال وزوال الحضارة الرومانية حلت محلها الحضارة العربية الاسلامية التي كانت مركزها في دمشق وبغداد والقاهرة والتي استمرت نحو سبعمائة سنة. وكان لهذه الحضارة الفضل في تنظيم شؤون الدين والعبادات وفي تطوير العلوم والاداب والفلسفة والفن . اضافة الى تنمية فنون الادارة اوالحكم ونظام الجيش والنظام الاقتصادي والسياسي والاجتماعي عندما كانت الحضارة العربية الاسلامية في اوج قوتها وعظمتها[٧] .

وعند سقوط الحضارة العربية الاسلامية علىيد المغول في اواسط القرن الثالث عشر حلت محلها الحضارة الاوربية التي اضافت للحضارة الانسانية الشيء الكثير في ميادين الزراعة والصناعة والحرب والادارة والعلم والتجارة والاقتصاد والتكنولوجيا بجميع اشكالها .كما نمت وتطورت فنون الحياة والمجتمع الى درجة ان الانسان اصبح اكثر قدرة وقابلية على تذليل معطيات الطبيعة لصالحه وصالح مجتمعه. كذلك تعمقت النظم الديمقراطية والمشاركة السياسية اذ تقلصت في الحضارة الاوربية قوة الحاكم وسطوته واتسعت قوة الشعب وازدادت خياراته في رسم صورة الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية التي كان يريدها [٨] .

بعد هذا التحليل الموجز للهبات المادية وغير المادية التي قدمتها الحضارات البشرية للانسانية يؤكد هيجل بان الحضارات هي في حالة تكامل على الرغم من تباين صور نموها وتقدمها وعطاءاتها. فكل حضارة تكمل الحضارة الاخرى، وان الامم هي صانعة الحضارات ، لذا فهي متكاملة. لذا فليس من امة او حضارة تستطيع الادعاء بانها هي الامة الاساس في الحضارة الانسانية وان الامم الاخرى لا فضل لها على الحضارة العالمية. وهنا يقول هيجل بان الحضارة تظهر لفترة من الزمن ثم تهرم وتموت فتحل محلها حضارة اخرى لتكمل الرسالة التاريخية للحضارة المندثرة او المندرسة[٩] . وكلما اختفت او اندثرت حضارة في مكان ما من الارض حلت محلها حضارة اخرى في مكان اخر من الارض لتكمل الرسالة التاريخية للحضارة الزائلة او المندرسة . وعندما تظهر حضارة في مكان من الارض فان شعب تلك الحضارة هو الذي يحمل مشعلها . والشعب الذي يحمل مشعل الحضارة كما يقول هيجل هو الشعب السيد وان الشعوب الاخرى ينبغي ان تخضع او تذعن له ولارادته. ذلك انه يحمل الرسالة التاريخية للبشرية التي يريد الوصول بها الى شاطئ التألق والتقدم والرقي والشموخ[١٠] . كما ان الامم ينبغي ان تنظر لحامل المشعل او الرسالة التاريخية نظرة مليئة

بالاعجاب والاحترام والتقدير الى ان يكون غير قادر على حملها لسبب او لاخر وان من يحملها مكانه هو الذي ينبغي ان يكون مبجلاً ومحترماً ومعظماً .

لذا فالحضارة البشرية التي نعيشها هي نتاج للجهود التي بذلتها الحضارات السابقة كحضارة وادي الرافدين والحضارة الاغريقية والحضارة الرومانية والحضارة العربية الاسلامية والحضارة الاوربية وليست هي حكراً لحضارة او شعب واحد كما يدعي البعض على حد تعبير هيجل(١١) . ان الحضارة الاوربية هي مدينة للحضارة العربية الاسلامية والحضارة الاخيرة مدينة للحضارة الرومانية والاغريقية، وان الحضارتين الاخيرتين مدينتان لحضارة وادي الرافدين والحضارة المصرية ابان عهد الفراعنة. وهنا نستطيع القول بان هيجل يعتقد بتكامل الحضارات البشرية وليس باختلافها وتناقضها. بمعنى اخر ان هيجل اراد ان يقول بان الحضارات البشرية هي حضارات في حالة تفاهم وانسجام وتحاور وليس في حالة تضادد وسوء تفاهم وصراع وعداوة ظاهرة وكامنة(١٢) .

المبحث الثاني : الهبات المادية لحضارة وادي الرافدين التي قدمتها للحضارات الاخرى .

لقد قدمت حضارة وادي الرافدين العديد من الهبات المادية للانسانية منذ زمن بعيد كاكتشاف الزراعة وتدجين الحيوانات وبناء القرى والقصبات والمدن وتنظيم مشاريع الري والبزل وصناعة الاسلحة وبناء المعابد ونحت التماثيل على اختلاف انواعها وحجومها . ويمكن هنا تحديد اهم سمات الهبات المادية التي جاءت بها حضارة وادي الرافدين .

أ. الزراعة في حضارة وادي الرافدين :

وجد المنقبون في شمال العراق آثاراً يرتقي منها الى العصر الحجري الحديث ،وهذه الاثار هي آثار وجود الزراعة القديمة ، فقد اهتدى الانسان الى الزراعة في العصر الحجري الحديث وتدجين الحيوانات واختراع القوس والسهم مع نشوء القرى الزراعية. ومن الآلات التي وجدت في العراق ابان ذلك العصر ادوات الحراثة ومناجل الحصد وغيرها من الادوات الزراعية(١٣). وفي قرية تل حسونة وجدت آثار اقدم الفلاحين في العالم اذ عاش هؤلا في الالف السادس قبل ميلاد . وكان اجداد هؤلاء الفلاحين الذين وجدت آثارهم في الموقع حديثي العهد بالانتقال من طور الصيد الى طور الزراعة . وقد عاشوا في البداية في بيوت الشعر ثم تقدم احفادهم بعد اجيال فبنوا بيوتهم من الطين وصنعوا الفخار الملون والالات الحرث والحصاد. ولم يهتدوا بعد الى استعمال المعادن . وفي العهود التي اعقبت العصر الحجري الحديث بدأ الانسان باستعمال المعادن التي اولها النحاس .فصنع منه الاته وادواته . واذا كانت الزراعة في العصر الحجري الحديث محدودة وبمقياس صغير الا انها

اتسعت في العصور التالية للعصر الحجري الحديث وصار الفلاحون متخصصين ومتفرغين للزراعة ويبادلون الفائض مع محصولاتهم بالصناعات التي ظهرت كصناعات الادوات الزراعية(١٤).

ب. بناء القرى والمدن :

وجدت في العراق القديم وبخاصة في العصر الحجري الحديث اولى القرى التي عاش فيها اقدم الفلاحون في العالم. ومن اقدم هذه القرى قرية تقع على تل حسونة في جنوب الموصل ،وهناك قرية جرمو التي تعد اقدم من قرية حسونة. وهذه القرية تقع قرب جمجمال بحوالي (٣٥) كم شرق كركوك . وتعد الزراعة العامل الاساسي الداعي الى استقرار السكان ، واستقرار السكان في الاراضي الزراعية هو الذي دفعه الى بناء القرى .وبعد تعاظم الكثافة السكانية وزيادة الطلب على المواد التي يحتاجها الانسان وحاجة السكان الى الامن الممزوج مع رفاهيته الاقتصادية كان هناك ميل الى بناء المدن لتكون ملاجئ للسكان ومواقع للممارسة الانشطة الاقتصادية وبخاصة التجارة والخدمات ، فظهرت العديد من المدن الكبيرة التي بناها الاشوريون في السهول التي قطنوها(١٥). ولعل من اهم هذه المدن مدينة آشور ونمرود ونينوى وخرسباد واربيل وكركوك. ولمدن حضارة وادى الرافدين كما هو معروف اهمية عسكرية دفاعية واهمية اقتصادية وتجارية ، واهمية سياسية وثقافية(١٦). فضلاً عن الاهمية الجغرافية والاستراتيجية لهذه المدن التي تعاظمت بزيادة سكانها.

جـ. فن البناء والنحت :

بالاضافة الى اختراع الكتابة وظهور المعتقدات الدينية خلال عصر الوركاء فقد حدثت تطورات مهمة في حضارة العراق في ذلك العصر اذ تقدم فن البناء وبخاصة المباني العامة كالمعابد والقصور(١٧). كما وجدت معابد شيدت على مصاطب اصطناعية ملونة من عدة طبقات كانت اصل الابراج المدرجة (الزقورة) ،وهذه كانت ابنية شاهقة تمتاز بها المدن المهمة مثل مدن اور ونمرود قرب بابل وبرج عقرقوف . وكان البرج المدرج يشيد جوار المعبد ، اي معبد المدينة وبشكل طبقات يتراوح عددها بين الثلاث والسبع طبقات تتدرج في السعة بالتناقص حيث تكون اسفل الطبقات اوسعها واكبرها ثم تليها الطبقات الاخرى . وتكون كل طبقة اصغر من تحتها وكان يشيد فوق القمة معبد لعبادة آلة المدينة الخاص الذي يمكن الوصول اليه بواسطة السلالم التي تربط طبقات البرج او الزقورة الى ان يمكن بلوغ المعبد .

ومن الاشياء التي اهتدى اليها سكان العراق القدماء قبيل بداية العصور التاريخية وبرعوا فيها فن النحت اذ خلفوا لنا آثار نفيسة من منحوتاتهم حيث نحتوا من الحجر تماثيل مجسمة ونقشوا على الواح من الحجر صوراً بارزة تمثل المشاهد المختلفة من حياتهم(١٨) . ومن منحوتات العراقيين القدماء رأس فتاة وجد في مدينة الوركاء الالهة والتماثيل التي تجسد الاشياء التي كانوا يعبدونها .

د. الاختام الاسطوانية :

واخترع العراقيون القدماء في عصر الوركاء الاختام الاسطوانية التي كانت عبارة عن مقتنيات شخصية يستعلمها الفرد في التوقيع على الرسائل والعقود التي يوافق عليها والتي تعبر عن ارادته الشخصية(١٩) ، والختم الاسطواني هو خرزة او حجرة اسطوانية منقوشة بصورة مختلفة وبهيئة معكوسة بحيث اذا دحرج على الطين وهو طري يترك طبقة الصورة الاصلية ، وكان الختم الاسطواني بمثابة توقيع صاحب الختم وقد ينقش احياناً باسم صاحبه . وقد وجد المنقبون في اطلال العراق القديمة الآلاف من هذه الاختام الاسطوانية ، وهي تعد من المصادر المهمة لمعرفة احوال العراق في ادواره المختلفة اذ يمتاز كل دور منها بنوع خاص من الاختام الاسطوانية المنقوشة بصورة مختلفة تمثل مناظر ومشاهد مختلفة من الحياة اليومية والعقائد الدينية والاساطير الواردة في القصة والادب والشعر والنثر(٢٠) .

المبحث الثالث: الهبات غير المادية لحضارة وادي الرافدين التي قدمتها للحضارات الاخرى .

يتناول هذا المبحث اهم الهبات والاضافات غير المادية التي قدمتها حضارة وادي الرافدين للحضارات الاخرى ولعل اهمها ظهور الكتابة وابتداع الاساطير والملاحم والتطور في اللغة والادب والتدين والعبادات(٢١) . اضافة الى ظهور اول نظام سياسي عرفه العالم مع قيام مراكز الحكم المستقلة في المدن. ناهيك عن القيم والاخلاق والمثل السامية التي اتسم بها العراقيون القدماء . والان علينا دراسة بعض الهبات غير المادية التي قدمتها حضارة وادي الرافدين للانسانية.

أ. الكتابة في حضارة وادي الرافدين :

ان الحاجة الى تدوين او تسجيل واردات المعابد الكثيرة والمتنوعة قد دعت المسؤولين الاداريين الى وجود وسيلة للتدوين اذ ظهرت الكتابة . وكان ذلك اول مرة في تاريخ الحضارات حيث اوجد العراقيون القدماء الكتابة في منتصف الالف الرابع قبل الميلاد(٢٢) .

ويعد ظهور الكتابة من اهم واخطر الاختراعات التي ميزت الحضارات الناضجة . كانت الكتابة اول امرها بسيطة مبدؤها تدوين الاشياء برسم صورتها (الكتابة الصورية) على الواح الطين الطرية بقصبة او خشبة مستدقة النهاية. وتخصصت في اول اطوارها على الاعداد والرسوم البسيطة التي تمثل اشياء مادية مألوفة في تسجيل واردات المعابد . غير انها اخذت تتطور وتتعقد في العصور التالية فتكونت مجموعة من العلامات استعملت للتعبير عن المعاني المجردة، بالاضافة الى الاشياء المادية ثم تطورت هذه الصور شيئاً فشيئاً بعد التأكد من الشبه بين اشكالها والاشياء التي كانت تمثلها

في الاصل وصارت علامات مختصرة تعبر عن مقاطع تستعمل لكتابة الكلمات بعد تقطيعها الى مقاطعها(٢٣) .

لقد ظهرت الكتابة في طور من عصور ما قبل السلالات سمي بطور الوركاء نسبة الى مدينة الوركاء في شرق الفرات بالقرب من ناحية الحضر في قضاء السماوة حيث اكتشفت اقدم كتابة في تاريخ الانسان . وقد تقدمت الكتابة تبعاً لتقدم معالم الحضارة الاخرى في الطور الذي اعقب عصر الوركاء وهو طور جمدة نصر نسبة الى تل صغير باسم جمدة نصر قرب المسيب . لكن مع ظهور الكتابة في عصر الوركاء فان المؤرخين يعتبرون عصر الوركاء وكذلك جمدة نصر الذي اعقبه من عصور ما قبل التاريخ في العراق(٢٤). ذلك ان الكتابة في هذين العصرين لم تستعمل الا في تدوين الاشياء البسيطة كتسجيل واردات المعابد دون الحوادث التاريخية والسياسية والشؤون المهمة الاخرى التي لم تدون الا منذ بداية الالف الثالث قبل الميلاد . ويمكن اعتبار بداية الكتابة في حضارة وادي الرافدين من العوامل الاساسية في تطور معالم الحضارة الاخرى كظهور الاديان الوثنية وتنامي المعتقدات بافعال الخير والشر وتميز الخطأ عن الصواب في القول والفعل .

ب. التقوى والتدين ومخافة الله سبحانه وتعالى :

من اهم الهبات التي جاءت بها حضارة وادي الرافدين التقوى والتدين ومخافة الله سبحانه وتعالى . فقبل ايمان حضارة وادي الرافدين بالله الواحد الاحد الذي ظهر بين ابنائها ابان وبعد عصر النبي ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام كان العراقيون يعبدون الالهة المتعددة كآله الارض وإله النار وإله الشمس وإله القمر وإله الشجر . وبعد ايمان العراقيون بالله الواحد الاحد على يد ابراهيم الخليل تعمق ايمانهم في نفوسهم واخذوا يخشون الله سبحانه وتعالى ويعتبرونه مصدر الحياة ومصدر كل شيء(٢٥) .

وترسخت القيم الفاضلة عند العراقيين القدماء الى ان اضحت بمثابة المحفزات للسلوك الاجتماعي والتفاعلات الاجتماعية بين الناس. علماً ان قوة الايمان التي حملها العراقيون منذ بداية ظهور الاديان كان لها الدور الكبير والفاعل في تنامي قوتهم وتطوير امكاناتهم المادية وغير المادية بحيث استطاعوا بناء دولتهم بناءاً قويماً وصلداً وتقدموا في جميع ميادين الحياة. فضلاً عن اثر الايمان الذي يمتلكه العراقيون في قوتهم وقدرتهم على التوسع الاقليمي على حساب الاقاليم الاخرى مما مكنهم من تكوين اكبر واقوى الامبراطوريات في العالم .

اما اسباب التقوى والتدين ومخافة الله عند العراقيين القدماء فترجع الى ما يلي :

١. خوف العراقين من قوة رهيبة جعلهم يؤمنون بالاديان البدائية التي كانت تعد مصدر حياتهم وتقدمهم وازدهارهم .

٢. التقليد والمحاكاة الاجتماعية ، ان ايمان جماعة او زمرة بدين معين يدفع بقية الجماعات والزمر الى الايمان بنفس الدين وعبادة نفس الالهة(٢٦) .

٣. التقوى والتدين والايمان بالله الذي كان يختلج العراقيون القدماء يجعلهم موحدين ومتضامنين. علماً ان وحدتهم هي شيء لابد منه في الدفاع عن حاضرهم ومستقبلهم ضد اطماع الدول الاجنبية .

٤. قوة الايمان الديني عند العراقيين القدماء تمكنهم من تجاوز الازمات الحياتية التي تجابههم كالكوارث الطبيعية والحروب وموت الافراد الاعزاء والمقربين(٢٧) .

٥. الايمان بالاديان يجعل المؤمنين متمسكين بالقيم الايمانية ومستوعبين مضامينها وابعادها الاجتماعية والاخلاقية ، وهذا ما يجعلهم متكيفين للوسط الاجتماعي الذي يعيشون فيه مهما يكن حجمه ومهما تكن طبيعته.

جـ. القصة والادب وملحمة كلكامش :

لقد برع العراقيون القدماء بكتابة القصة التي هي صورة من صور الادب عندهم. ولعل من اشهر القصص الادبية عند العراقيين القدماء التي خلدتهم هي قصة الطوفان التي تفصل بين السلالات القديمة والحديثة(٢٨). وقصة الطوفان تتعلق بملحمة مشهورة تعرف بملحمة كلكامش التي تدور حول حياة البطل جلجامش احد ملوك الوركاء القديمة اذ تصف القصة مغامراته واسفاره مع صديقه انكيدو الذي بموته جزع جلجامش .فقرر البحث عن جده(اتونابشتم) وهو نوح الطوفان عند البابليين القدماء . ذلك ان جلجامش اراد الاستفسار منه كيف صار خالداً واصبح في مصاف الالهة، وبعد اسفار ومشقات وصل الى جده فاخبره هذا بان الذي يطلبه لا يمكن تحقيقه لان الخلود هو من صفات الالهة وان مصير البشر الموت . ثم قص عليه كيف استطاع هو ان يكون خالداً وما يكون قصة الطوفان والقصة هي ما يلي :

في يوم ما غضبت الالهة على البشر لاثامهم فقررت افنائهم بتسليط الطوفان عليهم . غير ان الالهة وهو" اياه " اله الحكمة المشهور بحبه للبشر اشر الى اتونابشتم الصالح الساكن في مدينة شروبان الواقعة على الفرات بعزم الالهة ونصحه ان يصنع له فلكاً او سفينة وان يجمل في الفلك نماذج من الاحياء ففعل ودخل في السفينة واوصد بابها فحدث الطوفان وهاجت الزوابع وهطلت الامطار وغمرت المياه اليابسة واستمر الحال ستة ايام. وفي اليوم السابع سكتت الزوابع واستقر الفلك في جبل نصيرا وجبل الجودي المذكور في القرآن الكريم ، ان جبل جودي يقع شمال زاخو في شمال العراق الآن . وعند استقرار الفلك في جبال نصيرا وجبال الجودي ارسل اتونابشتم في اليوم الرابع حمامة فعادت الحمامة اذ لم تجد مكاناً تحط فيه ،ثم ارسل طير السنونو ولما لم يجد مكاناً يحط

عليه عاد ،ثم ارسل الغراب فطار ولم يعد وكان ذلك دليلاً على ظهور اليابسة . وخرج اتونابشتم (وهو النبي نوح عليه السلام) وعائلته من السفينة وقرب من الالهة فسرت به كثيراً ومنحته الخلود وصار آلهاً مثلها(٢٩) .

اما بالنسبة الى جلجامش فان اتونابشتم بعد ان قص عليه خبر الطوفان وبرهن له على تعذر حصول الانسان على الحياة الخالدة دله على نبات عجيب في غور البحر اذا اكل انسان منه عاد الى شبابه . وبعد ان عثر عليه جلجامش سرقته منه الحية واستطاعت بواسطته ان تعيد اليها الشباب بنزع جلدها كل عام .

د. العلم والمعرفة :

كان العراقيون ابان حضارات وادي الرافدين العريقة وبخاصة السومرية والاكدية والبابلية مهتمين بالعلم والمعرفة اهتماماً كبيراً اذ انهم سبقوا الاغريق في العلوم والفنون والاداب والفلسفة والدين ، وان الاغريق مدينون لهم بجميع العلوم والمعارف التي جاءوا بها وتميزوا في حيثياتها ومفرداتها(٣٠)، فالعراقيون القدماء قد نبغوا في الهندسة والطب والقانون والشرائع والدين والمعتقدات الدينية وفنون النحت والرسم والعمارة والبناء. اضافة الى تميزهم في التربية واصول التعليم والشعر والادب والكتابة والقصة ، ناهيك عن بروزهم في علم الفلك والتنجيم والعرافة والسحر والرياضيات والكيمياء والفيزياء(٣١) .

ان اهم عمل ثقافي وعلمي ومعرفي قامت به حضارة وادي الرافدين هو اختراع الكتابة التي يعتبرها مؤرخو الحضارة مرادفة للحضارة . وقد نتج عن اختراع الكتابة المسمارية والخط المسماري اللذين ميزا حضارة وادي الرافدين نتائج مهمة عن نشوء عدة مؤسسات تعليمية وثقافية كانت الاولى من نوعها في تاريخ الحضارات. فقد اقتضى اتقان الخط المسماري ومعرفة اللغة السومرية ان تنشأ في العراق القديم معاهد للتعليم ومؤلفات في شرح العلامات المسمارية ومرادفاتها في اللغتين السومرية والبابلية . لقد ظهر في العراق القديم اقدم مؤسسات التعليم اي المدارس التي اطلقوا عليها اسم بيوت الالواح واطلقوا على الطالب اسم ابن بيت الالواح ، ولم يقتصر التعليم في المدارس على تعليم اللغتين السومرية والبابلية بل شمل تعليم الهندسة وعلوم الحياة والكيمياء والطب والفلك والشعر والادب والقصة .

ويبدو من هذا ان نظام التعليم احتل مكانة مهمة في المؤسسات الاجتماعية اذ اولته الدولة اهمية بارزة لان فن الكتابة وتعليم العلوم والمعارف كان عماد الحياة السياسية والاقتصادية لتدوين شؤون الحياة المختلفة وفي مقدمتها اعمال الدولة الرسمية من سجلات ورسائل ادارية وتنظيم شؤون القضاة والتقاضي والمحاكم ،اضافة الى شؤون المعابد المعقدة في نشاطاتها. كما كانت في بلاد الرافدين مدارس للدراسات العليا اطلقوا عليها بيت الحكمة(٣٢).

اما الطب فقد ظهر في بلاد وادي الرافدين قبل ان يظهر في اي مكان اخر. ذلك ان الممارسات الطبية قد ظهرت في حضارة وادي الرافدين منذ اقدم الازمان وهي مستقلة عن الممارسات السحرية. ويستدل من النصوص الطبية التي وجدت في مكتبة الملك الاشوري اشور بانيبال في القرن السابع قبل الميلاد وفي مدينة اشور وفي مطلع الالف والاول قبل الميلاد على ان التخصص قد ظهرت بداياته في طب العراق القديم منذ مطلع الالف الثاني فظهر الاطباء الجراحون ومجبرو العظام والبياطرة واطباء العيون. كما ان الاطباء كانوا على مراتب مختلفة منهم كبير الاطباء والاطباء الاعتياديون. والعمل الطبي في بلاد وادي الرافدين كان يقسم الى عمل تشخيصي وعمل علاجي(٣٣). اما الادوية التي عرفها العراقيون القدماء فهي ادوية الاعشاب والادوية الحيوانية والادوية الكيميائية المستخرجة من المعادن. وقد استعمل الصيادلة القدماء معارفهم في الكيماء في تحضير طائفة من الادوية بطرق كيمياوية مختلفة كالخلط او المزج والسحق والتركيب مع مواد اخرى والتقطير والترشيح والتصعيد . كما انهم استحضروا مراهم ودهونات واشربة مختلفة . وقد عثر المنقبون في مدن العراق القديمة على نماذج من الاجهزة والادوات والالات التي استخدموها في مثل هذه العمليات .

مما ذكر اعلاه نلاحظ بان اهتمام العراقيين بطلب العلم والمعرفة هو الذي جعلهم يتقدمون في جميع مجالات المعرفة والثقافة كالطب والكيمياء وعلوم الحياة والتربية والتعليم والفنون على اختلاف انواعها والادب والشعر والقصة. فضلاً عن تميزهم في علم الفلك والتنجيم والعرافة والرياضيات وتقدمهم هذا انما جعلهم مركز اشعاع للحضارات العالمية التي ظهرت بعد حضارتهم .

المبحث الرابع : العبادات والاديان في حضارة وادي الرافدين .

يعد العراقيون اول من ابتدعوا الاديان واول من عبدوا الالهة والكائنات المقدسة عندهم. ذلك ان ايمانهم بالاديان ولجوئهم الى العبادات كانا يرجعان الى خوفهم من قوى سرية رهيبة تفعل ماتفعل بالانسان وقومه ومجتمعه وبيئته وحياته(٣٤). وان عبادته للالهة والكائنات وطاعته لها يمكن ان يرضي هذه القوى ويجعلها تساعد الانسان في امور حياته ولا تغضب عليه ولا تنتقم منه بل تضفي عليه الخير والبركة وتحميه من كوارث الطبيعة والحروب المهلكة وتمنحه القوة والشكيمة في مواجهة تحديات الحياة وتقلباتها .

لقد ازدادت معلوماتنا عن الحياة الدينية عند العراقيين القدماء بشيوع الكتابة وانتشارها وكثرة استخدامها في تدوين شتى صنوف المعارف والعلوم. والحقيقة ان المصادر الكتابية عن الحياة الدينية عند العراقيين القدماء كثيرة ومتعددة الصنوف، وقد دون بعضها باللغة الاكدية كما ان ما تم الكشف عنه من معابد ومقابر وتماثيل الالهة ومنحوتات ذات مضامين ودلالات دينية قد اسهم بشكل

واضح في تنامي معلوماتنا عن هذا الموضوع ،اما المصادر الكتابية عن الديانة في العراق القديم فكثيرة ومتنوعة لعل اهمها ما يلي :

١. القصص والاساطير السومرية والبابلية التي تتعلق بخلق الكون والانسان وعالم ما بعد الموت، كما ان بعض المؤلفات الادبية كالملاحم والقصص والاساطير تعرض في معظم الاحيان جوانب مختلفة من المعتقدات الدينية(٣٥) .

٢. قوائم باسماء الالهة وألقابها واهميتها وعلاقة بعضها ببعض مع ترتيبها الالهي المقدس من حيث الفاعلية والتأثير في حياة الانسان الاولى والثانية .

٣. الشعائر والصلوات والادعية .

٤. نصوص تتضمن كيفية اقامة الشعائر الدينية وكيفية بناء المعابد وتطهيرها وما يتوجب القيام به من شعائر عن ظهور بعض الحوادث والظواهر الطبيعية كالزلازل والبراكين والجفاف والفيضانات والخسوف والكسوف .

٥. نصوص تتضمن تفاصيل الاحتفالات الدينية التي كان يتبارك فيها السومريون والبابليون مثل احتفال رأس السنة واحتفال الزواج المقدس.

٦. التعاويذ والنصوص السحرية .

٧. نصوص التنجيم اي رصد الكواكب والاجرام السماوية ومعرفة اثرها في شؤون الناس .

٨. النصوص الادارية الخاصة بالمعابد مما يسلط الاضواء على ممتلكاتها وواردتها ومدارسها ومكتباتها وكهنتها(٣٦) .

وتتسم الديانة في بلاد وادي الرافدين او عند العراقيين القدماء بصفات مميزة لعل ابرزها ما يعرف بين المختصين بمبدأ الحيوية، اي الاعتقاد بوجود قوى وارواح كامنة في مظاهر الطبيعة وتجسيدها بهيئة آلهة(٣٧). لقد مارس انسان وادي الرافدين بعض الطقوس التي كان يهدف من خلالها زيادة الخصب والتكاثر وضمان حصوله على صيد وفير .وفي مرحلة لاحقة وخاصة بعد ان توصل الانسان الى الزراعة وتدجين الحيوانات صار يرى بان هناك قوى فاعلة في كل ما حوله من الظواهر الطبيعية والتي كان معظمها يشكل بالنسبه له تحدياً واضحاً في حياته اليومية ، وتتجلى خطورة الظواهر لانسان تلك العصور خاصة في بلد رسوبي منبسط مثل بلاد سومر واكد بتغيير الظروف المناخية والطبيعية بشكل متطرف من خلال فصول السنة. ولذلك جسد الانسان تلك القوى الطبيعية بهيئة الهة خصها بالعبادة والتقديس ،وطبيعي ان تحظى السماء باهتمام الانسان مثل غيرها من الظواهر الكونية الاخرى . وقد اطلق السومريون اسم آن على اله السماء واعتبروه في المرتبة الاولى بين الآلهة كلها. واستمر في ذلك في مختلف العصور من تاريخ العراق القديم .

لقد اعتقد السومريون والبابليون بان الكون كان يتألف بالاصل من السماء والارض متحدين وانه بعد انفصالهما عن بعضهما البعض تكون ما يعرف بالفضاء الذي تهب فيه الرياح وتعصف الزوابع(٣٨). وتصوروا بان للفضاء او الجو الهاً اطلقوا عليه اسم انليل بمعنى سيد الريح. وتأتي الارض في المرتبة الثالثة بعد السماء والجو ،وقد جسد العراقيون القوى الطبيعية التي توجد في الارض بهيئة إله هو انكي اي سيد الارض . غير ان هناك ظواهر كونية عديدة في السماء والفضاء والارض . في السماء على سبيل المثال يلاحظ المرء الشمس والقمر وفي الفضاء يظهر البرق ويدوي الرعد فتهب الرياح والعواصف، وفي الارض توجد الانهار وتنمو النباتات والاشجار وتتكاثر الحيوانات، وقد جسّم العراقيون هذه الظواهر بشكل آلهة اعطوها اسماء وخلعوا عليها صفات مميزة كإله الشمس وإله القمر وإله الشجر وإله البرق والرعد ... الخ(٣٩) .

وبالاضافة الى مبدأ الحيوية فان الديانة في العراق القديم تتسم بالاستمرارية التاريخية، اي ان المعتقدات والطقوس الدينية بقيت محافظة على جوهرها خلال العصور التاريخية المختلفة وحتى في الفترات التي تعرض فيها العراق الى حكم اقوام اجنبية ، غير ان هناك ظاهرة جديرة بالملاحظة وهي ان انتقال السلطة من سلالة الى اخرى كان يصحبه في كثير من الاحيان تغيير في مكانة بعض الالهة(٤٠) . ويمكن القول ان إله السلالة والمملكة التي بيدها مقاليد الحكم يحظى عادة بقسط اكبر من التقديس ويكون له شان كبير بين الالهة الاخرى كما حدث بالفعل للالهة دكان من زمن سلالة ايسن والالهة مردوخ ابان حكم سلالة بابل الاولى والاله اشور في زمن سيادة الاشوريين .

والصفة الاخرى للمعتقدات الدينية للعراقيين القدماء هي ان دياناتهم كانت تتسم بتعدد الالهة(٤١) ،وقد كان ذلك نتيجة لتعدد المظاهر الكونية والطبيعية التي جسدها الانسان بشكل آلهة، وهناك اعداد كبيرة من الالهة التي عبدها السومريون والبابليون . ومن الجدير بالذكر ان الديانة في العراق القديم ظلت تتسم بالشرك ولم تصل في يوم الى مبدأ التوحيد اي عبادة آله واحد الا في زمن ابراهيم الخليل عليه السلام(٤٢). وقد نسب العراقيون الى آلهتهم جميع صفات ومزايا البشر وهو ما يعرف بمبدأ التشبيه . فالالهة حسب اعتقادهم كانت تفكر وتعمل وتأكل وتشرب وتتزاوج غير انها كانت تنفرد بصفة واحدة عن البشر الا وهي انها كانت تتمتع بالخلود الابدي ، بينما كان وما زال الموت من نصيب الانسان(٤٣) .

ومثلما ينظم المجتمع الانساني بشكل دويلة المدينة التي يحكمها امير فقد تصور العراقيون القدماء ان الالهة هي الاخرى التي اقتسمت المناصب والمسؤوليات فيما بينها، واصبح كل واحد منهم مسؤولاً عن ظاهرة او شيء معين ،وهكذا تنتظم حركة الكون ومختلف الظواهر الطبيعية بصورة مستمرة . كما تصوروا ان للالهة رئيساً هوآله السماء وان لها مجلس على غرار مجلس دولة المدينة حيث تجتمع الالهة العظام لاتخاذ القرارات العليا التي تهم الالهة والبشر على حد سواء .وقد اعتقدوا

ايضاً بان سلطة الحاكم الدنيوي مستمدة من الالهة، وان الحاكم ما هو الا ممثل الالهة ومنفذ لارادتها، فهو الذي يشن الحرب بامرها ويعقد السلام بامرها ايضاً وان القوانين التي يشرعها ويفرض على رعيته اتباعها كانت مستمدة من الالهة وبتعبير اخر فان الحاكم الدنيوي في عقيدة السومريين والبابليين مجرد ممثل اختارته الالهة لينوب عنها في الارض .اما موطن الالهة فقد تصور العراقيون القدماء انه في السماء كما تصوروا وجود آلهة اخرى تستوطن العالم السلفي ، اي في عالم الاموات الذي يقع تحت الارض ،وقد اهتم قدماء العراقيون كثيراً ببناء المعابد واقامة الزقورات (الابراج) العالية ليؤدوا فيها العبادات والاحتفالات والطقوس الدينية وليقدموا فيها النذور والقرابين الى الالهة . ونتيجة لمبدأ التشبيه فانهم صوروا آلهتهم على صور البشر تماماً في كثير من الاعمال الفنية مثل الدمى والتماثيل والمنحوتات والاختام ،كما انهم اعطوا لها اشارات خاصة ومميزة كالتيجان المقرنة وخصصوا لها رموزاً للدلالة عليها .

الخلاصة والاستنتاجات :

مما ذكر اعلاه من معلومات عن فضل حضارة وادي الرافدين على الحضارات الاخرى نخلص الى القول بان حضارة وادي الرافدين التي هي من اقدم الحضارات التي عرفتها البشرية كانت في حالة اتصال مع الحضارات الاخرى اذ قدمت للحضارات الانسانية العديد من الهبات المادية وغير المادية. وان الحضارات التي جاءت بعدها لاسيما الحضارة الاغريقية والحضارة الرومانية كما يخبرنا فردريك وليم هيجل هي حضارات مدينة لحضارة وادي الرافدين . ولما كانت حضارة وادي الرافدين سباقة في رفد البشرية بالعديد من المعالم المادية وغير المادية للحضارة فليس من حق الحضارة الغربية التي تتزعمها امريكا الان ان تفرض سطوتها عليها او تدعي بانها افضل من بقية الحضارات وان على الحضارات اقتباس النموذج الحضاري الامريكي كنموذج مثالي لا ترقى الى مكانته اية حضارة اخرى .

ان هذا الادعاء لهو ادعاء كاذب ومزيف . فليس من حق حضارة ما ، كما يؤكد العالم هيجل، ان تدعي بانها افضل من بقية الحضارات وان نموذجها هو قدوة للاخرين . ان الشيء المسلم به هو ان كل حضارة تأخذ وتعطي للحضارات الاخرى وان الحضارات هي في حالة حوار وتناغم وانسجام وليس في حالة صراع كما تريد ان تبرهن الحضارة الغربية التي تتزعمها الان امريكا عندما تدعي زوراً وبهتاناً بانها افضل من غيرها ، وان نموذجها ينبغي ان يؤخذ به في جميع ارجاء العالم وان الدولة التي لا تأخذ به يمكن ان تُحارب وتُباد ولا يكون لها وجود في العالم .

ان اهم ما قدمته حضارة وادي الرافدين للحضارات البشرية ما يلي :

١. اختراع الكتابة وتعليم القراءة .

٢. ابتداع الزراعة والري والبزل مع تربية وتدجين الحيوانات .

٣. ابتداع العبادات والدين والتدين .

٤. الايمان بالله سبحانه وتعالى الواحد الاحد .

٥. العلم والمعرفة .

٦. الالتزام بالقيم والمثل والاخلاق واعتبارها دافعاً حقيقياً للسلوك والتفاعلات بين البشر .

٧. البناء والنحت والزخرفة .

٨. اكتشاف النار .

٩. اكتشاف المعادن وصناعة الاسلحة.

١٠. اختراع العربة واستثمارها في المواصلات والحرب .

اما محتويات البحث فتتكون من مقدمة واربعة مباحث وخلاصة واستنتاجات . ومباحث البحث هي ما يلي :

المبحث الاول: نظرية هيجل عن التكامل الحضاري وتطبيقها على التفاعل بين حضارة وادي الرافدين والحضارات الانسانية الاخرى التي جاءت بعدها .

المبحث الثاني: الهبات المادية لحضارة وادي الرافدين التي قدمتها للحضارات الاخرى .

المبحث الثالث: الهبات غير المادية لحضارة وادي الرافدين التي قدمتها للحضارات الاخرى .

المبحث الرابع : العبادات والاديان في حضارة وادي الرافدين .

مصادر البحث :

1. Hegel , W. F. Lectures on the History of Phiosophy , Translated by J. Haldane and Simpson , Routledge and Kegan Paul , London , 1955 , P. 186 .
2. Ibid., P. 195 .
3. Ibid., P. 214 .
4. Ibid., P. 217 .

5. Aczel , G. The Contributions of Babylonian Civilization to Humanity , Allami Kiado , Budapest , 1977 , P. 43 .
6. Ibid., P. 45 .
7. Hegel , W. F. Lectures on the History of Phiosophy , P. 221 .
8. Ibid., P. 229 .
9. Stace, W. T. Philosophy of Hegel, Macmillan, London , 1964 , P. 18 .
10. Ibid., P. 24 .
11. Ibid., P. 25 .
12. Ibid., P. 28 .
13. Volkov , M. E. Ancient History of the Middle East , Moscow , Progress Publishers , 1973 , P. 3 .
14. Ibid., P. 8 .
15. Aczel, G. The Contributions of Babylonians Civilization to Humanity, P. 50 .
16. Ibid., P. 51 .
17. Person , T. Mesopotamia : The Land of Culture and Religion , London , Evans and Handy Press , 1981 , P. 45 .
18. Ibid., P. 52 .
19. Ascadi , G. P. The People of Mesopotamia in Ancient Time , Academy Press , Budapest , 1975 , P. 16 .
20. Ibid., P. 19 .
21. Cook , E. F. The Early Civilization of Mesopotamia , Thames Press , London , 1976 , P. 13 .
22. Person , T. Mesopotamia : The Land of Culture and Religion , P. 41 .
23. Ibid., P. 43 .
24. Ibid., P. 49 .
25. Aczel , Georgy . The Prophets of Ancient Mesopotamia , Allami Kiado , Budapest , 1963 , P. 11 .
26. Ibid., P. 13 .
27. Ibid., P. 20 .
28. Elly , S. Bablon , The Land of Legends , New York , The Free Press , 1970 , P. 3 .
29. Ibid., P. 5 .

30. Aczel , Georgy . The Contributions of Babylonians to Humanity in Ancient Time , Allami Kiado , Budapest , 1977 , P. 16 .

31. Ibid., P. 20 .

32. Ibid., P. 26 .

33. Ibid., P. 31 .

34. Frank , M. Early Civilizations and Religions , London , The Alley Press , P. 31 .

35. Ibid., PP. 38-39 .

36. Ibid., P. 42 .

37. Ibid., P. 43 .

38. Ibid., P. 50 .

39. Gyula , F. Relipious Beliefs in Ancient Iraq, Rozsa Allami Kiado, Budapest , 1962 , P. 48 .

40. Ibid., P. 49 .

41. Ibid., P. 51 .

42. Ibid., P. 60 .

43. Ibid., P. 66 .